المارونية في ذكرى أبيها

بقلم الياس بجاني

مسؤول لجنة الإعلام في المنسقية العامة للمؤسسات اللبنانية الكندية

لبنان ال ١٠٤٥٢ كيلو متر مربع، هذا البلد الصغير بمساحته، الكبير بعطاءاتـــه، المحمي بشفاعة أمه السيدة العذراء، المقدس بترابه المجبول بدم وعـــرق شـــهدائه، لبنان الرسالة والتعايش والقيم، لبنان جبران وهنيبعل حيرام وقدموس والبســـتاني والبشير وفخرالدين وشربل والحرديني ورفقة، هذا اللبنان، فيه تخمرت المارونيـــة، ومنه انبعثت مبشرة بالإيمان والإبداع في كافة أرجاء الدنيا. حملته معها حضـــارة وعلماً وعطاءً، حل أينما هي حلت، فَعُرِّفت به وَعُرِّف بها.

لقد انطلقت المارونية من بلاد إنطاكية في القرن الرابع على يـــد مـــار مـــارون ورهبانه الأبرار، ثم قدَّرَ الله لها أن تستوطن لبنان وتجعل من اللبنانيين رسل محبـــة وفداء. لقد هدت المارونية اللبنانيين وحولت وطنهم إلى قلعة للإيمان والصمـــود، ثم انطلقت منه لتنتشر مبشرةً العالم بقيمها وبمعتقدها الديني، وبالحضارة الفينيقيـــة المميزة. فمن كان ذلك القديس المؤسس للمارونية، وأين جعل منسكه؟ وكيـــف تفرق أبناؤه؟ في التاسع من شهر شباط من كل سنة تحتفل الكنيسة المارونيـــة في بذكرى أبيها مارون الراهب والناسك والقديس. في هذا اليوم يعود الموارنـــة إلى ذواتهم، فيتأملون في ما عانوه من صعاب، منذ نشأت كنيستهم، وحـــتى يومنـــا هذا، بحلوها ومرها، مستعيدين طاقاتهم في التحفز والعزم والإيمان.

مارون الراهب والناسك الأرامي العرق، السرياني المذهب واللغة، (كما يقـــول المؤرخ الكبير فؤاد أفرام البستاني) نشأ في مدينة قورش شمالي شـــرقي انطاكيـــه وعلى مسافة يومين منها، وإلى الشمال الغربي من "هيرابوليس" (منبج) عاصمـــة سوريا الثالثة أو "الفراتيه". ولا تزال "قورش" ماثلة للعيان حتى اليوم على نحـــو

خمسة عشر كيلومتراً إلى الشمال الغربي من "كلّس" في تركيه، وعلى نحو سبعين كيلومتراً شمالي مدينة حلب.

طبقاً للأب "بطرس ضو"، و"البطريرك الدويهي" و"فؤاد أفرام البستاني"، فإن مارون الراهب اختار قمة يبلغ ارتفاعها نحو ثمانمئة متر في "جبل سمعان" والذي كان يُدعى آنذاك "جبل نابو"، نسبة إلى الإله الوثني "نابو"، (بين انطاكيه وحلب وقورش) كان أقيم عليها قديماً هيكلٌ وثني تداعت أركانه على توالي الأحقاب، ثم أقفرت المنطقة حتى غدت بمعزل عن حركة السكان. فقصد إليها مارون في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي ارتياداً للخلوة والطمأنينة، فكرس الهيكل الوثني المخصص للأبالسة منذ القدم، وأخذ يستعمله في عبادة الإله الواحد. وكان يقضي معظم وقته في العراء متعبداً لا يستعمل المعبد إلا لتقديم الذبيحة. في أعماله التقشفية التي تميزت بقضاء معظم الوقت في العراء صيفاً شتاءً. لم يكتفِ مارون بتمريس نفسه على المعتاد منها، كالصوم والصلاة والركوع والسجود والتأمل ومناجاة الرب وحبس نفسه في منطقة محددة وقهر الجسد وتحريم الجلوس أحياناً والوعظ والإرشاد وتعزية المصابين والحزانى. كل هذا لم يكتفِ به، بل كان يزيد عليه ما ابتكرته حكمته جمعاً لغنى الحكمة الكاملة، فمنحه الرب قدرة الشفاء. ذاع صيته في كافة أرجاء المنطقة وقام بعجائب لا تحصى ولا تعد بواسطة دواء واحد، ألا وهو الصلاة، لكن أعماله لم تقتصر على شفاء أمراض الجسد، بل كان يبرئُ أيضاً أمراض النفس. فكان يشفي إنساناً من البخل، وآخر من الغضب، ويعلم رجلاً الاقتصاد، ويعلم غيره قانون العمل، وينهي واحداً عن استباحة المحرمات، ويوقظ آخر من غفلة التواني (حسبما جاء في كتاب معاني الأيام للمؤرخ الكبير فؤاد أفرام البستاني). تتلمذ على يد القديس مارون عشرات الرهبان والنساك، وتأسست في أيامه عشرات الأديرة، وبُنيت مئات الكنائس، وتحول إلى المسيحية بفضل إيمانه معظم سكان المنطقة. وبعد أن أدى مارون

رسالته الأرضية بأمانة وصدق وتفاني، توفيَّ في سنة ٤١٠ ميلادية عن عمر ناهز السبعين عاماً قضاها في عطر القداسة. مات القديس محاطاً بالمئات من تلاميذه وأتباعه من المؤمنين، وكان أوصى أن يُدفن في نفس قبر أستاذه الشيخ الجليل الناسك "زابينا" في بلدة "كيتا" المجاورة لقورش، حيث تنسك وبشر، وذلك عرفاناً منه بجميل "زابينا"، إذ كان المؤمنون قد شيدوا هناك على مقربة من قبره هيكل كبير سموه هيكل الناسك زابينا . إلا أن وصيته لم تنفذ ودفن في قرية في جنوب القورشية قريبة جداً من "كيتا" بعد أن تمكن سكانها وكانوا كثيري العدد من أخذ جثمان القديس عنوة للتبرك به واستمداد القداسة منه، فشيدوا على قبره كنيسة كبيرة جداً في بلدتهم ظلت قائمة مئات السنين، وما زالت آثارها موجودة حتى الآن (تاريخ الموارنة للأب بطرس ضو). هذا وبنى رهبان القديس مارون ديراً كبيراً على اسمه، بالقرب من نبع نهر العاصي، ساهم في الحفاظ على عقيدة الدين المسيحي، وفي نشر تعاليم الإنجيل في لبنان وسوريا وسائر بلاد انطاكيه والبلدان المجاورة. لقد كان الدير منارة للعلم والثقافة والتقوى والشهادة لسنين طويلة إلا أنه دمر في النصف الأول من القرن العاشر خلال عهود الاضطهاد القاسية التي تعرضت لها الكنيسة في بلاد الشرق وقتل خلالها مئات الرهبان الموارنة دفاعاً عن العقيدة الحقة التي آمنوا بها. بعد دمار دير مارون انتقل رهبانه إلى جبال لبنان المنيعة، وأسسوا مع اللبنانيين والمردة ما يعرف اليوم بالأمة المارونية المنتشرة في كافة أرجاء العالم، جاعلين من لبنان ملاذاً لكل مضطهد وطالب للحرية والإيمان. إن ما ميز ويميز الموارنة هو حبهم الجارف للعذراء مريم وعلاقتهم الوثيقة بها على ممر العصور، حتى أصبحت هذه العلاقة عنصراً جوهرياً في الروحانية المارونية، وتكاد لا تخلو قمة جبل أو مدخل بلدة، أو حتى مترل في الجبل اللبناني من تمثال أو مزار لها.

المؤرخ الكبير فؤاد أفرام البستاني وصف المارونية بما يلي: "المارونية إيمان، وعقل، ومذهب في الحياة، إيمان وطيد بالعقيدة الكاثوليكية، ويقينٌ بانتصار الحق، وشمول الخير، وواجب السعي الدائب في محبة القريب والغريب. عقلٌ عاقلٌ منفتحٌ على مختلف الثقافات في العالم، يأخذ منها ويفعل فيها. يأخذ مختاراً، وينتخبُ واعياً، ويهضم متمثلاً، ويفعل مخلصاً في سبيل الحق والخير والجمال. هذا ما جاءت به المارونية لبنان، فعملت في تطوّره حتى عُرف بها وعُرفت به. فلا وطن لها سواه، ولا كيان له بدونها، فهما ثابتان على كروم الأيام، لا انتقاصاً من حقّ قريب ولا عداءً لجار، مندفعان ولا تهور، صابران ولا يأس، راجيان ولا غرور."

لم تعرف المارونية في تاريخها القنوط يوماً وكانت دائماً تُحوِّل، وبفضل إيمان شعبها، الهزائم إلى انتصارات، والحزن إلى فرح، واليأس إلى أمل ورجاء. إن الأمة بمعناها الكامل كما يقول "الأب بطرس ضو" تعني أربعة عناصر رئيسية هي : أرض، وشعب، وحضارة، وكيان سياسي مستقل، والمارونية تمكنت من تأمين هذه العناصر وبنجاح خلال حقبات متعددة من تاريخها وكانت دائما تناضل لاستعادة ما تفقده منها مقدمة التضحيات الجلل بعزيمة صلبة وعناد لا يلين.

اليوم ولبنان في حالته المأساوية من احتلال وتبعية، ما أحوجنا إلى شفاعة قديسين من أمثال مارون... فيا أيها القديس، يا فخر النساك، نتضرع إليك لتستمدَّ لنا نِعَمّ الثبات والإيمان والتقوى والتسامح، وتعيننا على مواجهة الشدائد بعزيمة وإيمان. نتضرع إليك أن تعيد السلام والمحبة إلى أرضنا القداسة والقديسين، وتفك أسر شعبنا من نير الاحتلالات، ليعود لبناننا ملجأً لكل مضطهد، وملاذاً لكل مظلوم، وواحة للحرية للتعايش، ورسالة للمحبة والسلام.

كندا-تورنتو في ١٩٩٩/١/٩